

الطباعة العربية في بلاد ما وراء النهر وروسيا

الأستاذ الدكتور أنس خالدوف

أنس خالدوف

باحث في معهد الدراسات الشرقية -

سان بطرسبرغ

- من مواليد تترستان،

١٩٢٩م.

- دكتوراه في الأدب

العربي،

الوظائف

- رئيس دائرة الشرق

الأدبي في معهد الدراسات

الشرقية، سان بطرسبرغ.

من نتاجه

- فهرس المخطوطات العربية

في معهد الدراسات الشرقية

بسان بطرسبرغ.

- المنازل والديار لابن منقذ.

- مقالات عن تاريخ الثقافة

العربية.

- كتاب الأوراق (خلافة الواثق

والمتموكل ... المهدي) للصولي

(لم ينشر).

نشأت الطباعة في بلاد ما وراء النهر بعد أن احتلها الروس أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ولا بد لنا حين نتناول بالحديث تاريخ الطباعة في تلك المنطقة أن نبدأ بالموضوع من روسيا ومسلميها .

استعمل الروس الحروف الطباعية منذ أيام القيصر بطرس الأول العظيم الذي أمر باستيراد آلات الطباعة وأجهزتها من أوروبا وكانت بمختلف اللغات . وأول ما نعرف من الطباعة العربية في روسيا بيان القيصر بطرس الذي صدر في ١١ فبراير (شباط) من عام ١٧١١ وكان القصد منه تسويغ الحملة العسكرية على تركيا . وقد أعلن البيان بعدة لغات ومنها لغة تتر القريم وبرجاس . وطبع على لوحات نحاسية . ويدل خطه ولغته على أن المترجم قازاني الأصل وكذلك كاتب اللوحات .

سار القيصر بطرس سنة ١٧٢٢ في حملة إلى إيران وأخذ معه مطبعة متنقلة ، دبرها له وأدارها ديمتري كانتمير أحد الأدباء الروس المقربين إلى القيصر ، كان مسلماً ينتمي لأسرة شريفة تسكن بلاد القريم ، وانتقل إلى الخدمة الروسية في مولدافيا . وقد صاغ هذا الأديب الحروف العربية في أثناء مسيرة الحملة ولكنها لم تستعمل سوى مرة واحدة ، طبع بها البيان الصادر في ١٥ يوليو (تموز) ١٧٢٢ في مدينة استرخان مترجماً إلى اللغة التتارية .

وفي السنة التالية ١٧٢٣ ألغيت تلك المطبعة المتنقلة وحملت أجهزتها وحروفها العربية إلى موسكو وأعطيت لمطبعة سينود ، أي الإدارة العليا للكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، ومنها دفع قسم من الحروف العربية بعد مدة إلى مطبعة أكاديمية العلوم في بطرسبرغ ، وذلك حوالي سنة ١٧٢٨ ، وإلى مطبعة جامعة موسكو حوالي سنة ١٧٧٤ . ولم تستعمل هذه الحروف العربية في القرن الثامن عشر كله إلا لطبع لوحات وأطباق رسمية فاخرة تقدم عند تنويع القياصرة أو عند قدوم الوفود الدبلوماسية من الخارج أو في الاحتفالات وكذلك لطبع بيانات القيصر . والمثال

على ذلك هنا البيان الموجه إلى مسلمي باشغرد والتار الذين ثاروا مع بوكاجوف في ادعائه بالملك الروسي . وبيان التعريف الجمركية لسنة ١٧٨٢ وكتاب فيه كلمات وعبارات مفردة تساعد على دراسة التركية والتتارية التي ترجم بعضها من الفرنسية مثل كتاب لسعيد خَلْفَن .

وأول كتاب كامل طبع باللغة العربية في روسيا هو القرآن الكريم صدر زمن الملكة كاترينا الثانية التي أذنت بتأسيس المطابع الخاصة . وكان من رواد المطبعيين الناجحين شنور البطرسبورغي الذي تعاقد مع وزارة الخارجية في ٢٧ أغسطس سنة ١٧٨٥ لنشر كتب باللغات الشرقية . وقد سميت مطبعته بالمطبعة الآسيوية . وكان من أعمالها طبع قوانين الدولة باللغة التتارية إلى جانب طبع المصاحف الشريفة . ومن أجل ذلك سرحت الدولة أربعة جنود من التتر المسلمين عينتهم لديه من أجل التنضيد ، وكان يصحح التجارب الطباعية شخص يدعى عثمان إسماعيل ، صاغ حروفاً عربية من جديد ، طبع بها القرآن الكريم في مطبعة شنور المذكورة في بطرسبرغ سنة ١٧٨٧ بأمر الملكة كاترينا الثانية كما ذكرنا . وقد ذكرت دواعي إصدار هذا المصحف في الطبعة الأولى فقط ثم أعيدت طباعته مراراً من غير إشارة إلى زمان أو مكان ومن غير ذكر عدد النسخ وأسماء الأشخاص المسؤولين . وقد اتضح للباحثين أن هذا المصحف طبع في سنة ١٧٨٩ أو ١٧٩٠ وفي سنة ١٧٩٣ و١٧٩٦ وفي زمن الملك بافل الأول سنة ١٧٩٨ في مطبعة السنة أي المجلس الأعلى بعد أن ألغيت مطبعة شنور سنة ١٧٩٧ .

من المعروف أن نسخ الكتب باليد كان عند كثير من المسلمين عملاً مألوفاً وعادياً ومحترماً ، وكان لبعض الناس حرفة مربحة أو هواية . وصار جمع الكتب وحفظها ونسخها واستنساخها ودراستها والاستمتاع بها مزية من مزايا الحضارة الإسلامية وخاصة في بيئات المثقفين ، ولذا فقد أحس المسلم أن تكثير عدد الكتب بواسطة

المطبعة - ككل اختراع تقني يأتي إليهم من الأجانب - مائمة خطيرة وبدعة مكروهة تضر بسلامة المفاهيم الإسلامية . وقد كان المسلمون مستعدين للانتفاع بكل ما ينتجه الأجنبي من بضائع وأمتعة استهلاكية لكنهم ترددوا في اقتباس العلوم والخبرات المناسبة . أما المسلمون الذين خضعوا لقيصر روسيا وصاروا من رعاياه فقد كانوا مجبرين على تنفيذ أوامر السلطة ، رغم أنهم كانوا يحاولون الدفاع عن تقاليدهم وقيمهم الموروثة .

وقد فكر بعض مسلمي قازان الذين تأثروا بالقرآن الكريم المطبوع في بطرسبرغ بما حمل إليهم تجار المطبوعات الأتراك ، فكروا بإدخال المطبعة إلى بلدهم . وفي سنة ١٧٩٧ تقدم أحد صغار الضباط (ملازم ثان) ويدعى أبا الغازي براشف ، تقدم إلى القيصر يستأذنه في تأسيس مطبعة بقازان لنشر الكتب بالتتارية والفارسية والعربية ، فرد عليه القيصر بالرفض ، لكنه كرر طلبه مرات بمساندة مواطنيه حتى استطاع أن يحصل على الإذن سنة ١٨٠٠ ، فأسس بناء على ذلك «المطبعة التتارية» وكانت تابعة للجمنازية الروسية رقم واحد في قازان .

وقد اشترطت عليه السلطات شروطاً قاسية ، أهمها أن يطبع الكتب الدينية لا غير ، وكانت هذه تحت مراقبة شديدة . كما اشترط عليه أن يكون أكثر دخله من بيع الكتب للإدارة الحكومية .

أصدر أبو الغازي براشف منذ سنة ١٨٠١ عدداً يسيراً من الكتب بالتتارية مثل «كتاب أسطواناني» لمحمد الأسطواناني الدمشقي (١٦٠٢ - ١٦٦٢) و«ثبات العاجزين» لصفي الله يار و«فوز النجاة» . وأصدر كذلك كتباً بالتتارية والعربية مثل «التهجي» أو «ألف با» و«شرائط الإيمان» وطبع القرآن الكريم وسوراً منه . . وهكذا انتقلت طباعة الكتب العربية الإسلامية من بطرسبرغ إلى قازان فصارت هذه الأخيرة وهي المركز الإسلامي القديم الشهير مقر الطباعة الروسية مدة قرن أو أكثر .

وفي سنة ١٨٠٥ أسست الجامعة الإمبراطورية في قازان ، فجعلت هذه المطبعة تابعة لها منذ سنة ١٨٠٩ . وإذا كانت مدينة قازان مركزاً للطباعة الإسلامية في روسيا على مدى القرن التاسع عشر فمطبعة الجامعة فيها أصدرت معظم الكتب الإسلامية ، وقد سميت هذه المطبعة في المصادر بتسميات مختلفة منها «مطبعة الجامعة» أو «دار الفنون» ، أو «مطبعة الخزانة» أو «المطبعة الجامعية» أو «المطبعة الإمبراطورية» .

وأنشئت في قازان مطابع خاصة نشرت كتباً بالعربية ، فمنها :

(١) مطبعة لودفيغ شيفيتش النقاش الهولندي الأصل الذي توطن قازان ، وأصدر بطلب من المسلمين خمسة وأربعين كتاباً بين سنتي ١٨٤١ و١٨٤٨ . ثم باع مطبعته إلى كوكوفن وصارت تسمى باسمه . ثم استعارها منه في الستينات جيركوف فبقيت في ملك أسرته ، وسميت باسمه ، وظلت تطبع الكتب الإسلامية الكثيرة حتى بداية القرن العشرين .

(٢) ومن تلك المطابع الخاصة مطبعة شاهي يحيى الحجرية ، أصدرت أربعة كتب سنة ١٨٤٤ ، ثم تملكها محمد ولي يحيى ، فطبع عليها ١٩ منشوراً بين سنتي ١٨٥٩ و١٨٦٩ . وانتقلت بعد ذلك إلى إبراهيم عبد الله فتابعت أعمالها حتى انقطعت نشراتها سنة ١٨٨٢ ، وآلت بعدئذ إلى ابنه عبد القاسم (كذا) .

(٣) ومنها مطبعة رحيمجان سعيدوف التي أصدرت كتباً بين عامي ١٨٤٥ و١٨٥٠ .

(٤) ومطبعة تلي أصدرت كتاباً عربياً واحداً فقط .

(٥) ومطبعة بيبروف الحجرية التي تأسست منذ عام ١٨٧٩ وأصدرت لوحات أو ورقات كبيرة الحجم ذات رسوم ونصوص من بينها مشاهد

استانبول ومكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة وفلك نوح وشجرة الحياة وبعض مساجد روسيا .

(٦) ومطبعة ويجيسلاف . استمرت من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٤ ثم انتقلت إلى دومبروفسكي .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت مطبعتا ويجيسلاف وجيركوف تنافسان مطبعة الجامعة بكمية الكتب وعدد النسخ .

لقد كانت المنشورات القازانية تدر أرباحاً كبيرة على تجارها كما ذكر إيرار كرىمولن في عدد من بحوثه عن الكتب التتارية وتاريخ طباعتها . وقد ذكر الباحث المشار إليه أن أكثر الدخل الحاصل من تجارة الكتب الإسلامية يؤول للمؤسسات الحكومية أو للأشخاص غير المسلمين ، ولم يسمع بتمليك المطابع للمسلمين إلا نادراً ، مع أن أغلبية من طلب نشر الكتب واهتم بها كانوا من المسلمين ، وهم الذين أخرجوها على نفقاتهم ، كما كان عمال المطابع والمشترون للكتب والقراء من المسلمين . وأما انخفاض أسعار الكتب القازانية فيعود إلى رخص أثمان الورق المحلي وتدني كلفة إنتاج الكتب . . وعلى كل حال فإن من العجيب أن الدولة المسيحية في أقصى الشمال كانت في القرن التاسع عشر تحضر إلى المناطق الإسلامية كثيراً من الكتب العربية وتساهم في السوق بتجارة الكتب المنشورة في تركيا والهند وغيرهما وتنجح في ذلك . . . حتى صارت الطباعة الإسلامية والعربية في روسيا ظاهرة بارزة من ظواهر الحياة الثقافية في العالم الإسلامي كله .

كان طبع الكتب الإسلامية في روسيا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين يجري تحت رقابة صارمة متعنتة لاتقطع من جهة رقباء الروس الذين كانوا بصورة طبيعية يتعصبون لمملكتهم وكنيستهم ودينهم ، هذا إلى جانب كون مدينة قازان مركزاً للدعاية المسيحية الروسية الأرثوذكسية وحركة التعميد

والتنصير بالقهر والإجبار .

إنّ تعارض المسلمين التتار والمسيحيين الروس مهد السبيل لازدياد نشر الكتب لهما ، وبرزت كتب الجدال خاصة . وكان الدعاة المسيحيون ينافسون ناشري الكتب الإسلامية ويكيدون لهم ، ويبلغون عنهم كبار موظفي الدولة بما في ذلك القيصر نفسه ، في حين كان المسيحيون ينالون مساعدات من السلطات وسكان المنطقة الروس في كل وقت وبكل نوع وطريق . ومع هذا فلم ينشر من كتبهم كميات تقارب الكتب الإسلامية ، وذلك لأن حب الكتب عند مسلمي روسيا صار فيما يبدو دافعاً وطنياً وتعصباً دينياً مرده معارضتهم لاضطهاد الحكومة وظلمها .

وقد انتشرت طباعة الكتب العربية في غير قازان ، فبطرسبرغ لم تقتصر على نشر المصاحف والكتب المقصودة للتجارة . فاستعملت الحروف العربية في أكاديمية العلوم لطبع الكلمات المفردة والجمل والعبارات التي تتضمنها بحوث المستشرقين عن المخطوطات والمسكوكات والوثائق والدراسات التاريخية الأدبية . ونشرت رسائل وكتب كاملة مثل «مختارات من الأدب العربي» وهي ألّفها على طلاب العربية في الجامعة فلاديمير كيركاس وفيكتور روزن ، ونشرت سنة ١٨٧٦ ، وكذلك كتاب «أخبار عن دولة التتار» جمعها وحققها وترجمها إلى الروسية تيزنهاوزن وغيرها من الأعمال القيمة كما أرسلت بعض النصوص العربية من بطرسبرغ إلى قازان لطبعها هناك .

وفي الوقت نفسه نشرت المطبعة التابعة لأكاديمية العلوم بعضاً من الكتب الإسلامية في سنوات ١٨٨١ ، و١٨٨٣ و١٨٨٤ بطلب من تجار الكتب التتار .

وفي سنة ١٨٩٤ أسس إلياس ميرزا البوراغاني - وهو من تتار القريم - مطبعته التي أخرجت في سبع سنوات حوالي ٢٦٧ ألف نسخة من الكتب على المطبعة الحجرية وبطريقة التنضيد ، كان ثلثها تقريباً باللغة العربية .

وفي موسكو نشرت مطبعة الجامعة كتابين أو ثلاثة كتب خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وكان في تفليس مطبعة لوالي القوقاز الروسي منذ سنة ١٨٢٨ ، فيها حروف عربية لكنها لم تطبع كتاباً واحداً بالعربية .

وقام في كل من أورنبورغ وباكو وغيرهما مطابع تأسست منذ سنة ١٨٣١ م .

كما كان لدى دعاة المسيحية الذين جاؤوا من اسكوتلندا وسويسرا مطبعة عربية ، وقد نشطوا منذ بداية القرن التاسع عشر في مناطق القوقاز ومدينة استرخان ، ونشروا عدداً من كتبهم بالعربية ، لكن نشاطهم انتهى سريعاً إلى الإخفاق . وقد ذكرنا أن كتب دعاة الأرثوذكسية كانت تطبع بالعربية في قازان .

وطباعة الكتب الإسلامية في بلاد ما وراء النهر (بالمعنى الجغرافي) لم تظهر إلا في العشر الأخير من القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد التغيرات التي جرت في روسيا بعد ثورة ١٩٠٥ .

والذي رأيناه في بلاد روسيا نراه هنا ، فملكية المطابع ودور النشر إما لإدارات الدولة أو لأشخاص من الروس مثل لاخطين وكنيناسكي في طشقند وبوتسف في بخارى . أما عمال المطابع والمصححون فكانوا من التتار الذين جاؤوا من قازان وما حولها . وبمرور الزمن دخل في مجال الطباعة أهل المنطقة المحليون فتعودوها واستحبوها واجتهد ناشرو الكتب الإسلامية في داغستان وأذربيجان ومناطق ما وراء النهر الأخرى في الربع الأول من القرن العشرين .

أما الكتب العربية التي طبعت في روسيا حتى أواخر القرن التاسع عشر فحدد موضوعاتها طلب المشتريين من جهة وقيود المراقبة من جهة أخرى . فكان من بين ذلك القرآن الكريم وأجزاء منه وسور وآيات وكتب علوم القرآن الكريم وكتب هجاء الحروف العربية ومجموعات الأدعية والأحاديث الشريفة والتمائم والطلاسم

واللوحات وأطباق الرسوم مع الأدعية والأذكار وأسماء الله الحسنى وذكر خواصها وأسماء الخلفاء الراشدين . ثم صدرت مع الزمن زيادة على ذلك كتب مدرسية في النحو والصرف والتجويد والقراءات والمنطق والبلاغة وأصول الفقه الحنفي وفروعه والعقائد والزهد والتصوف والتفسير والحديث الشريف والسير والتاريخ والرجال وكثير من هذه الكتب خرجت بالشروح والتعليقات . وقد صدر بعضها مرات وبعشرات الآلاف من النسخ .

وقد ساعدت الكتب العربية التي طبعت في روسيا حتى سنة ١٩١٧ على رفع مستوى المعرفة باللغة العربية الفصحى عند المسلمين فيها وعلى ازدياد الدارسين لها ، وكانت وسيلة لدعم المعارف والعلوم والقيم الأخلاقية والدينية الموروثة وحفظها . وربطت المسلمين الذين يسكنون بعيداً أو قريباً في روسيا مع إخوانهم ، وحسنت مفهوم الوحدة الثقافية الإسلامية ، وجمعتهم على مشكلاتهم وقضاياهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم جميعاً . كما انعكس في الكتاب العربي المطبوع في روسيا جوانب من الفكر التجديدي والإصلاحي للمسلمين ، وبدت فيه جهود الباحثين في الأدب العربي ومقاصد دعاة المسيحية وغاياتهم . فأين تلك الكتب الإسلامية العربية المطبوعة في روسيا منذ بداية الطباعة حتى القرن العشرين ؟ .

لقد ضاع معظمها ، وتعرضت للإهمال والاستعمال والحرق والغرق والإنلاف ، خاصة أنها لم تكن جيدة الورق ولا الحبر ولا التجليد .

وبقي منها القليل موزعاً على مكتبات العالم ، وأكثر نماذجها في مكتبتي سانت بطرسبرغ الوطنية ومعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم وفي مكتبة الجامعة ومكتبة أكاديمية العلوم في تاتارستان وفي مكتبات طشقند وأوفا وباكو وربما في غيرها من المكتبات الأخرى .